الزوجة الحقيقية

مسكينة الفتاة التي تفرش في مستقبلها غصناً من الورد وتستفيق بغتةً فتجد امامها اكليلاً من شوك .

مسكينة الفتاة التي تزرع بذور آمالها في ارض قاحلة فلا تلبث تلك البذور ان تجف وتلك الآمال ان تيبس .

مسكينة الفتاة التي تظن السعادة في الزواج . فتتزوج ولا تذوق كأس حبها حتى يصبح الزوج وحشاً قاسياً وتتحول تلك المحبة الى مقت وعداوة

. . .

كانت اسما وحيدة اهلها . وكانت فتاة ارق من اللطف والطف من الحب عرفتهما وكنا صغيرين لا نعرف من الدنيا شيئاً . عرفتها وقد ربينا كلانا في قرية واحدة ومدرسة واحدة ولا ازال اذكرها قدوة رفيقاتها ومثالاً حسناً لمن يحيط بها . وكثيراً ما كنا نناديها باسمها الممتاز تمييزاً لها عن سواها . وانقضت الايام ومرت الاعوام فتركت المدرسة والقرية ولم اعد اسمع بذكر اسما من ذلك الحين .

زرت في صيف السنة الماضية قريتي التي احبها كثيراً وكانت عواطفي تهتز سروراً لرؤياها بعد ذلك الغياب الطويل . وكنت اسير بين البساتين في الطريق الموصلة اليها وعوامل الشوق وذكرى الايام التي قضيتها مع ارفاق « صغار » تمرح في تلك الحقول وتركض تحت الاشجار التي كثيراً ما حملتنا وحملتنا من اثمارها تعيد على الماضي بكل ما فيه من اللذة والسرور . واخذت اعيد على ذاكرتي اسماء الارفاق الذين جمعني واياهم الزمان في غياض تلك القرية الجميلة فوجدت ان الزمان قد حمل اكثرهم الى العالم الجديد وانزل بعضهم الى اسواق المدينة وترك العدد القليل منهم يحرسون بساتين قريتهم الصغيرة .

وكنت اتقدم حتى ادخل القرية واذا بي اسمع اصوات صبيانها يهرجون ويلعبون فحنت نفسي شوقاً لتلك الايام وكان ذكرى الماضي ارادت ان تسقط دمعة من عيني فادرت ظهري الى الحائط استريح . واذا بامرأة بيدها طفل صغير آتية من بعيد . رأيتها وقد وصلت الى دالية تحمل عنباً فجلست تحتها واجلست صغيرها بجانبها . وصرت الى ان اقتربت نحوها ولاول وهلة وقع نظري على ذلك الجسم الناحل والتفت ابصاري بتلك العين الغائبة شعرت بقشعريرة في جسدي وقلت : الهي اعرف هذه المرأة ؟

واردت ان اتابع سيري فسمعتها تناديني باسمي فوقفت .

وامرورقت عين المرأة بالبكاء وقالت لي انسيتني يا صديقي ؟

وعادت تذكارات المدرسة الى مخيلتي وقلت في نفسي اليمكن ان تكون هذه المرأة الناحلة هي . اتحول اسما العائلة الى امرأة منكودة الحظ وتسنيعض عن رواق صبوتها وجمال شبابها بهذا الاصفرار وعن سرورها الماضي بهذا الحزن وكانها عرفت ما يخامر فكري فادارت نظرها نحوي وقالت لي تفضل ايها الصديق واجلس . ولا اظنك ناس صداقتنا القديمة او تخجل من ان تعترف بها . فاذا اسا ! ولا تتعجب فهذه حالة الدنيا والزمان قد جانى علي الشقاء فانا شقية . فاذا كنت كما اعهدك الطيف محبباً فتكرم بالجلوس وخذ درساً مفيداً عن حياتي وتأمل كيف يتقلب الزمان بابنائه فتحول النعمة الى نقمة والزوجة الامينة امرأة مهجورة منكوبة لاحظ لها من الدنيا . وان كانت المدنية الحديثة قد جعلت الفتى القروي شاباً عصرياً متمدناً تسر في لريقك يا صديقي القديم لحديث مثالي لا يذلا مثالك

وكانت اسما تتكلم وانا مصغٍ كاني اسمع فصلاً من رواية محزنة واكاد اصدق ان ما اسمعه وهماً لا حقيقة . وتأملت ثانية في تلك المخلوقة العائلة فرأيت الدموع تتساقط من عينيها وقد آلم هذا المنظر طفلها الصغير فاخذ يبكي لبكاء امه ولم املك نفسي على تلك الحال فبكيت معهما وتخلدت قليلاً وقد اشتاقت نفسي لسماع حديث الصديقة الفاتنة سبب ذلك الحنين المرأة التاعسة الباكية في هذا الوقت وقلت لها لا تبكي يا اسما فمصائب العالم وان تكن عظيمة فالقلوب الكبيرة اوسع منها وانها لاحقر من ان تسقط لك دمعة واحدة وكاني بك تغسلين بدموعك هل يوم فقولي لي ما لدي يبكيك يا اسما .

ومدت يدها الى جيبها ثم تجد منديلاً تمسح به دموعها فتأثرت لفقرها المدقع واخذت طرف ثوبها فمسحت عينها ومدت يداً لا تزال آثار النعمة والجمال تلوح على ظاهرها وقطفت عنقوداً من العنب لطفلها فاسكته . ثم التفت نحوي والاسف والخجل ظاهران على جبينها وقالت لي أتريد ان تسمع قصتي وقد خامرك العجب من الحالة التي انا بها فهما اني أقص عليك ما جرى لعذر او فم ايها الصديق ولا اعلم بايها انا اولى . ولا تظن بكائي عن ضعف وجبن بل بكيت لتذكر الايام التي وردت الى خاطري حين رأيتك واني ذكرت الحالة التي كنت بها وقابلتها مع ما انا عليه الان فبكيت

تعلم يا صديقي اني كنت وحيدة اهلي وقد توفي ابي وانا لا اعرفه فرعتني امي ولم تبخل بحياتها في سبيل سروري ونشأت وانا لا اعرف هماً ولم اتعود تعباً . وكنت وانا في المدرسة

ارى العالم جميلاً وحلواً واحسب لساعتي وصفاء نفسي ان من حولي بسيطاً وعاقلاً وصادقاً

وانتهيت من الهندسة فلازمت البيت وكنت اساعد امي في اشغالها القليلة ولم يطل ذلك اذ انبأوني بان كثيرين من شبان القرية يطلبونني زوجة لهم . ولم اكن قد افكرت في الزواج ولا خطر لي في يال فوقع هذا النبأ موقع الخوف والاستغراب فساءلها الامور تلي وارونيان ذلك لا بد منه ثم اختاروا لي عريساً فكنت لا اكلمه ولا اراه الا اذا اتى الكنيسة او مر مع ابويه امام بيتنا .

وفي الاثر ايها الصديق فتزوجت وانا اظن السعادة في الزواج . وكان اول ما تبع خاطري له اني رايت نفسي وقد انتقلت من وسط قديم الى وسط جديد ولاح لي ان نفسي ستمازج نفساً جديدة فاحببت ان تكون حياتي سعيدة ومتينة فكنت عنوان الاستقامة والامانة والصدق والطاعة وكان زوجي ذاتاً جميلاً تلوح على محياه دلائل الادب والشهامة قلت بكليتي اليه وكنت له اطوع من بنانه ولا تقدر كم كنت سعيدة به وانا احسبه سعيداً بي وقضينا الشهور الاولى ونحن على غاية السلامة والسعادة . ولكن اسفاه ان ذلك لم يطل وقد ابتدأت اشعر ان زواجنا لم يكن مبنياً على التفاهم الحسن ولم تكن اساساته المحبة الحقيقية

واني ذات مساء مع اصدقائه العديدين فجلسوا يشربون ويقمرون وقد انزويت لوحدي . واسفاه اني لا ازال اذكره وكم كان خجولاً حين قدومهم فلم يمض الوقت القليل حتى امتزج معهم واصبحت لا اكاد افرقه عنهم .

وتجيت في الليلة التالية اذ رايتهم حضروا وابتدأوا يشربون ويقامرون ورأيته وقد شاركهم في ذلك فلم املك ان قمت الى غرفتي فالقيت راسي على وسادتي وتأملت في الهاوية الهائلة المفتوحة امام زوجي وقلت في نفسي ان الوقت قليل ويجب ان ابذل جهدي لاخلصه من حالته الحاضرة . وانصرفوا بعد منتصف الليل واتى زوجي لينام فلاطفته وكلمته قطلاً ساكتاً ولم يتكلم . وكنت احاذر الغلطة الاولى بيني وبينه واخشى ان تقع .

وجاء اليوم الثاني فمضى بعد العشاء وانصرف ولم يعد حتى اواخر الليل وتركته يفعل ما يشاء حتى قرعت جبهة صبري فجلست مرة بجانبه والقيت راسي على يده فقبلني في جبيني وقلت له لما سلوتي ايها الحبيب وهل بطاوعك ضميرك ان تقرني في كل مساء وانا وحيدة منفردة لنفسي في هذا البيت) وكانه تاثر لما بي فعلا الاحمرار وجهه واستدرك فقال : ان جماعة الاصحاب يدعونني في كل مساء وقد عاهدتهم على المجيء ولا اعلم كيف اتخلص من وعدي . قلت له دع عنك هذه الاوهام يا عزيزي وقل لهم ان المتزوج مثلي لا يحق له

ان يترك زوجته في امثال هذه الليالي المظلمة وتعال وابقَ معي يا حبيبي . فالالفة العائلية هي السعادة التي يطلبها الزوجان واذا شئت فلدي كتاب عن الحياة العائلية اقرأه لك ولا اشك بانك تسرّ بسماعه كثيراً وبالعظم سروري حين رأيته قد اقتنع بكلامي فكنت اقرأ في اللغة الانكليزية وانرجم له العربية اذ لم اجد كتاباً عربياً يناسب المقام . وقضينا تلك الليلة على اتم سرور . وجاء اليوم الثاني احدهم بعاتبه فاعتذر لمرض ألمّ به

وكنت اريده ان يتكلم الحقيقة واشرت اليه بذلك فلم يفعل . وكانت امي مريضة فذهبت واياه في الليلة الثانية لزيارتها ونمت تلك الليلة عندها وتركته باتي البيت لكنه واسفاه جعل طريقه الى حيث قادته رجله ولما اتيت البيت صباحاً لم اجده وحضر بعده قليل وكان قد صرف تلك الليلة عند اصحابه .

وشاع في اليوم الثاني ان زوجي خسر في ذلك المساء مبلغاً وافراً من المال . ومانت امي في ذلك الحين فكانت المصائب تحيطني وانا لا اعلم ماذا افعل . ووسوست في اذني احدى النساء قائلة : ان زوجك يحب منك مالك فلعنت المال والزواج معاً . وجاء في يوماً منكسر القلب فاسفت على شبابه وقال لي ان الديون تراكمت عليه واصبح لا يملك شيئاً وقد ضاقت الدنيا في عينيه . قلت له يا عزيزي ان ذلك ناتج عن اسرافك وتبذيرك وها نحنا في البيت لا انفق شيئاً وجدنا لو تركت هذه العوائد المتسلطة عليك نعيش براحة بال وهدوء ضمير فانسى الماضي ولا يزعجنا الآتي . فوعد خيراً وطلب ان يفي ما عليه اولاً . وكنت لا اعلم السبيل الى ذلك فقلت له عليك بالشغل يا عزيزي فانت في مقتبل الحياة والعمل شرف للانسان . وكأنه تذمر من جوابي فالتفت الي وقال : ما عساني اعمل في هذه القرية وقد تعاطيت عملاً منذ زمن فخسرت رأس مالي ولم يبقَ لديّ شيء . بل اذا شئت فبيع قطعة الارض في جوار القرية تدخر ثمنها فليل وثمنها باهظ جداً ويمكننا اذ ذاك ان نفي ما علينا ونعيش بسرور وسلامة . وخشيت ان يقع الشر بيننا فقلت له كل مالي لك ايها العزيز واني لا اشور عليك بذلك ولا ارضى به ومع ذلك فانت ادرى واذا كنت لا ترى بدّاً منه فانا لا اعارضك في عمل ما طالما انت زوج حقيقي يهتم بمصلحة نفسه وبيته . وباع قطعة الارض وكنت اظنه يأتيني بالمال لانه مالي فعاد وقال لقد وفيت كل ما علي .

ورزقنا الله هذا الغلام تلك السنة نفرح به ولازم البيت وكنت اظن الطفل سيكون سبباً لعلاقة شديدة بيننا فيحفظ والده لي ويمنعه عن التهور فيما كان عليه . وبقينا على تلك الحالة اشهراً

لما بقية توفيق مفرّج